

لمى

عندما تقصف الدبابات المنازل، يجب ان تغادر المنزل فوراً، لان أهداف الدبابات غير دقيقة، تدمر بشكل عشوائي وتقتل بدون سابق انذار. الدبابات وحش مجنون ينطلق ليمزق اجساد المباني بلا عقل. هذا الحوار كان داخل رأس أبو أحمد حينما كان يحمل شنطة ملابسه وشنطة اوراقه الجاهزة اصلا في كل منزل في غزة والتي تحتوي على البطاقة الشخصية، وجواز السفر، وشهادة الميلاد، وعقد المنزل، والشهادات الجامعية، واهم شيء كرت التموين. لأن من خلاله يثبت انه لاجنا ويحق له التسجيل بالمدارس والحصول على الإعانات الغذائية وخلافه من اغطية وفرشات.

خرج أبو أحمد من المنزل مسرعا بصحبة زوجته وابنائها وأمه المقعدة على كرسيها المتحرك وابنه وزوجته وابناء ابنه. اخذوا يركضون بالشارع واصوات القذائف تصم الاذان والحجارة تنطير من حولهم وكأنها حمم من لهيب. ظلوا يركضون ويحاولون الاحتماء ببعضهم البعض ويدعون الله ان يساعدهم بالخروج من جهنم التي تحيط بهم من كل زاوية. كانوا خلال الركض كثيرا ما يتعثروا وينهضوا مرات ومرات. مرت الدقائق كأنها ساعات وأبو احمد يقود والدته بكرسيها وفي كل ثانية يتفقد عائلته، والمهم ألا يكون احدهم قد استشهد. الاصابات لاتهم الان. يعيد تفحصهم هل وقع أحد ولا يستطيع النهوض هل تأخر احد؟ كان رأسه بألف عين وألف عقل.

ظلوا يركضوا حتى وجدوا انفسهم خارج منطقة القصف. تنفسوا قليلا ثم اكملوا السير باتجاه شارع صلاح الدين، ليتمكنوا من الوصول الي المنطقة الآمنة بعد وادي غزة أي إلى الجنوب. كانت مشاهد الهجرة في مسلسل التغريبة الفلسطينية للمهاجرين وهم يحملون حوائجهم على ظهورهم ويسرون ببطء السلحفاة والموسيقي الحزينة ترافق المشهد تتكرر داخل رأس أبو أحمد. ولكن ما اعاظه انه لا يمكن ان تكون الهجرة بهذه السرعة وبهذا الرعب. لقد اجتزنا مسافة ٦٠٠٠ آلاف متر بلمح البصر ولا نعلم كيف! ولكن دعنا من التغريبة ومشاهدها ولنكمل الطريق. لقد اقتربنا من الدبابات ولكن من اين اتى فجأة كل هذا الطوفان من البشر من حولنا؟ كان لايد من للمخرج حاتم علي ان يستدعي كومبارس اكثر لمشاهد الهجرة، أجاب نفسه. انا في ايش وانت بأيش دعك من التغريبة وانتبه لحالك ولنكتبك، الظاهر عليك انهبلت.

تعلم انك حينما تقترب من الدبابات أن الكواد كابتر تطير فوق الرؤوس تصورهم ومن تشنبه به تطلق عليه النار فوراً. واهم شيء ممنوع التوقف بتاتا، وممنوع انزال اليدين يجب ان تظل الايادي مرفوعة وانت تحمل الحقائب. وفي حال سقطت من يدك حقيبة وانحيت لكي تلتقطها. يطلق عليك النار فوراً من الكواد كابتر وتقتل.

عاد يخاطب عائلته: هيا سيروا تقدموا، نعم الجميع موجودين امسكوا ببعضكم البعض، ابقوا متلاصقين. الدنيا مثل يوم القيامة، تقدموا، اياكم والتوقف، انتبهوا، بعد دقائق سوف تفتح لنا الدبابة ممر يجب ان نمر بسرعة.

يا الهي وكان عدد سكان غزة ١٠٠ مليون وليس مليونان. هيا بنا البوابة فتحت لنا الطريق اسرعوا. وفجأة نادى الجندي بالدبابة. انت يا من تسحب المرءة على الكرسي المتحرك اترك الكرسي مكانة. اجاب في نفسه حاضر، حاضر، وهو يحمل والدته و اخذ يركض بها وجميعهم يركضون حتي تجاوز الدبابة. ولكن المسافة الي الجنوب بعيدة. كيف سأحمل امي كل تلك المسافة يجب ان اعود واخذ الكرسي. قرار قد يكلفني حياتي ولكن لا بأس اما امي او اموت دونها. وضع امه على الارض وعاد راكضا باتجاه الكرسي وهو يلفظ الشهادة ويستعد للموت في أية لحظة. واخيرا وصل الكرسي، حمله وعاد مسرعا قبل ان تغلق الدبابة الطريق. وفي اللحظة الاخيرة تجاوز الدبابة قفزا قبل الاغلاق، واخذوا يركضون وصوت الجندي ينادي ممنوع التوقف، ممنوع التوقف.

وعاد يتفقد عائلته ولكنه هذه المرة لم يجد ابنته لمى بينهم، ابنة الثماني سنوات. اخذ يصرخ بهم اين لمى؟ اين لمى؟! لم يجبه احد. يجب ان اعود اجابة ابنه احمد. انت مجنون سوف يطلقون عليك النار. التوقف ممنوع ما بالك بالعودة. العودة تعني موت محتم تقدم يا ابي. واخذ يسحبه عنوة وبقوة الى الامام، وابو احمد يردد استعوضت فيك الله يا لمى استعوضت فيكي الله يا صغيرتي يا حبيبتي. كان يسير تجاه الجنوب وطوال الطريق لم تغب صور لمى عن باله. تذكر يوم أذن في اذنيها حينما التقطها لحظة مولدها، وأول مرة خطت خطواتها الأولى، وكيف كان يساعدها على المشي. وكم من اغاني وقصص الاطفال التي غناها لها قبل النوم. واليوم الاول التي حملت به شنتتها الصغيرة لتذهب الى الروضة كالفراشة الملونة البرينة. آه يا لمى يا قطعة القلب ومهجة الفؤاد آه يا ابنتي الحبيبة.

افاق على صوت زوجته وهي تقول له لقد وصلنا الي مدخل مخيم النصيرات دعنا ننتظر هنا على شارع صلاح الدين. علّ احدهم يكون قد اصطحب لمى وجاء بها. اجابها ابو احمد حسنا دعونا نجلس هنا وننتظر. ظلوا جالسين على الشارع. وفجأة انتبه لوجوه الناس المتجهمة والمغطاة بالغبار، وكل حزن وغضب وعبث الكون على وجوههم. ولكن حينما نظر الى عائلته وجد وجوههم اشد بؤسا وتجهما. واخذ يردد استعوضت بك الله يا لمى. ظلوا جالسين لمدة ثلاث ساعات وفجأة انشق البحر

من بين طوفان البشر وكانت لى تسير مع رجل يصطحب اطفاله وحينما رأت عائلتها ركضت مسرعة الى والدتها واخذ الجميع يبكون ويشكرون الرجل على عودتها، ثم اكملوا طريقهم الي خانيونس.

الان لى وعائلتها يمكثون في مبني الصناعة في خانيونس التابع لوكالة غوث وتشغيل اللاجئين. في انتظار عودهم لمنزلهم المدمر في مخيم الشاطئ.

قصة حقيقية

٢٠٢٣/١١/٣٠

علي ابو ياسين